وحدة تنوع العمارة الإسلامية
ودورها في تحديد الهوية(القصر العباسي في بغداد نموذجاً)

د.قبيلة فارس المالكي•

التراث وضرورة الحفاظ عليه

الإرث والوارث والتراث واحد (في لسان العرب)والتراث ما يخلفه الرجل لورثته والتاء فيه(أي في كلمة تراث) بدل الواو، وهكذا يقول الحديث النبوي (واليك مآبي واليك تراثي)ويفسر الزجاج الآية (وورث سليمان داود)بأنه ورثه نبوته وملكه أي أن التراث يشمل الصيغتين المعنوية والمادية.[١]

والموروث عامة والعمراني والمعماري منه خاصة يروى إنجازات أجدادنا ومفاخرهم إلا أنه في صراع مع الزمن،فهويتنا يتناقص يومياً مما يجعلنا أمام مهمة الحفاظ عليه أو بالأحرى ما تبقى منه، ذلك أن التراث أدى ولا يزال يؤدى دوراً مهماً في عملية البناء الوطني من خلال العودة للجذور وتفعيل العناصر الثقافية والاجتماعية الوطنية وشحذ الجوانب الروحية والقيمية وتأصيل شتى أوجه الحياة، فكل هذه الأمور ترتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالتراث.وينطبق هذا على المجتمعات التي تمر بتغيرات جذرية والتي تجد نفسها في مرحلة انتقالية بل لربما في مفترق الطرق بين القديم والجديد والأصيل والدخيل.[٢]

ينطبق ما تقدم على الدول العربية عامة والعراق خاصة،لهذا فأن المحافظة على التراث في المقام الأول محاولة للحفاظ على ما بناه الأجداد والأباء لتكون بمثابة الدعم والأساس لما يبنى عليه الأبناء وبذلك يستمر البناء الفعال للمجتمع من جيل إلى أخر ومن ناحية أخرى فأن المحافظة على التراث وإظهاره خلال البيئة المعاصرة يعبر عن حيوية الإنسان وبالتالي فالتراث وسيلة لإنعاش المجتمعات فكرياً وثقافياً وفنياً وصحياً،والدول ذات التراث تقدم خدمة إنسانية عامة للمجتمع،خدمة لاحدود لها، فلكل طريق السياحة الداخلية أو الخارجية يقدم التراث خدمة تعليمية وثقافية وبذلك فهو وسيلة تثقيف وتعليم للمجتمع المحلى أو الخارجي وهذا هدف حيوي آخر قائم بذاته.[٣]

والتراث يستنفر المجتمع للالتفات للبيئة والاهتمام بها حاضراً ومستقبلاً، مما يعطيه بعداً محلياً وعالمياً وإنسانيا في المجتمع المتغير،الذي يوضح حقيقة مهمة مفادها أن التراث قضية حياتية تتصل بالأمس واليوم وغداً، فهو وسيلة مهمة من وسائل متعددة تغرى السائح بزيارة المنطقة، مما يؤكد مقدرة التراث على إنعاش الحركة السياحية الثقافية منها خاصة،فضلاً عن أن التراث وسيلة للتعرف بالشعوب وعاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم

• د.قبيلة فارس المالكي أستاذ مساعد /قسم الهندسة المعمارية /جامعة بغداد

[١] هشام الصفدى ١٩٧٨ص ٦٦

[٢] حريز،١٩٩٩،ص٢٦٨

[٣] إبراهيم،محمد عبد العال،١٩٨٨.ص٢٥

وحضارتهم.[٤] مما يسهم في إنعاش المجتمع اقتصادياً وفكرياً وثقافياً. والى جانب ذلك نجد التراث-في أمتنا العربية خاصة-مجال واسع للدراسة والبحث فى الوثائق التاريخية ومعرفة مبادئ تشكيل الشواخص المعمارية الخالدة وهذا كله سيكون كنزاً حقيقياً يشهد بعظمة حضارتنا نستقى منها الدروس الواحد تلو الأخر، إلا أن الحفاظ لايعنى الإكثار من المتاحف-كما يرى الدكتور "محمد أركون"-وفصل المباني القديمة عن الحياة المعاصرة،أنما يعنى منح حياة جديدة لهذه المباني أو الوحدات التخطيطية الموروثة وجعلها ذات وظيفة(إعادة تأهيلها)ومصدراً للإلهام في كل ما ننتجه اليوم، وفى هذا تعتمد حركة الحفاظ على الموروث على وعى جميع الناس،عن طريق التربية والتعليم بحيث يأخذ سكان القرى والمدن والمواطنين في كل مجتمع على عاتقهم مهمة إحياء التراث (وليس بالضرورة تمويل هذه العملية)ولكن غالباً وللأسف لا يدرك السكان ضرورة الحفاظ على التراث الثقافي الذي لامثيل له،انهم يفتقرون إلى الوسائل والتعليم الثقافي اللازم،والى الوعى بالحاجة إلى الاشتراك في إحياء التراث والى ايجاد رباط بين ماضيهم وحاضرهم المتغير ومستقبلهم،وبمثل هذا الوعى يصبح الحفاظ على التراث عملية وطنية،[٥]

احتضار الموروث رغم الحفاظ

رغم الاهتمام المعاصر وتعالى الصيحات للحفاظ على التراث نعيش في الجانب الأخر مشكلة قلة الوعى بأهمية الحفاظ على التراث،فأن هذا الموروث يتعرض للكثير من الأضرار مما يتسبب في اختزال هذا الموروث وتناقصه ونخشى اختفاؤه كلياً أمام مجمل التحديات آتى يواجهها سواء منها المقصود أم غير المقصود، المباشرة وغير المباشرة،الطبيعية والبشرية،والأضرار الطبيعية أما خارجية أو داخلية، فالبراكين والزلازل والفيضانات، والعوامل المناخية(درجات الحرارة والرياح وأشعة الشمس والثلوج والأمطار وتلوث الهواء وغيرها)مضافاً لها الحيوانات والحشرات ومنها بشكل خاص حشرة الأرضة،إلى جانب القوارض، كلها تهدد الأبنية الموروثة وتقف الرطوبة في المقدمة وهى تدخل المبنى وتشوهه وتضعف كيانه. [٦] أما الأضرار البشرية فيتسبب بها الكثيرون ممن تختلف غاياتهم ويتوحد ضررهم بالموروث فأخطر ما يتعرض له الموروث من تأثير بشرى هو ما يسببه أعداء التراث ورافضية مما جعلهم يتنكرون لتراثهم متأثرين بالغزو الثقافي الأجنبي،حيث يقفون مبهورين أمام نتاجات الغرب ومنجزاتهم التي ماكان لأكثرها أن يكون لولا ما حققته أجدادنا العرب والمسلمين من علماء ومفكرين وغيرهم ممن أسهموا في بناء حضارة متميزة خالدة من الآلاف السنين،إلى جانب الرافضين للتراث هناك من أضر التراث ممن هم يقدسونه حتى حولوه

[٤] حريز،١٩٩٩،ص٢٧٣-٢٧٧
[٥] أركون،١٩٨٣،ص٤٥
[٦] واكد،١٩٩٦،ص٧/ص٨٣/ص٢٩٩

إلى حالة جامدة ذلك أنة هجران التراث وتركه يعرضه مع مرور الزمن للتصدع والانهيار يضاف إلى ذلك سوء الصيانة كما أن سوء اختيار الوظيفة لأعادة تأهيل عدد من المباني التراثية والتاريخية تتسبب في الأضرار بها حيث تتسبب بعض الوظائف(الصناعية مثلاً)إلي تصدع المباني وانهيارها.[٧]

ويطرح بعض المختصين بعض الأخطار البشرية التي تسبب الضرر للنسيج الحضري الموروث من خلال الفجوة التي يخلقها غياب التخطيط السليم بين الوظيفة المطلوبة والطراز الموروث فالإنسان -كما يرى المختصون- بشكل عام والأنسان العربي بشكل خاص تتغير حاجاته بسرعة تفوق سرعة التغير الحاصل في النسيج الحضري،مما قد يتسبب في تهديم غير مبرر لبعض الوحدات التخطيطية الموروثة التي تمثل خسارة لا تعوض ،وهذا ما يستدعى دراسة إمكانية التحوير في الوحدات الموروثة بما يجعلها متوائمة مع الوظائف لجديدة ،كما ويقف الاستثمار مهدداً للنسيج الحضري الموروث والأبنية التراثية ،فيقوم المستثمر بهدم أو تشويه الموروث لتحقيق ربح أعلى من خلال وظائف معاصرة منافسة تحتل في الغالب المواقع المركزية في المدينة العربية،وحينها فأن غياب الأشراف التخطيطي،يغرى بعض المالكين من الورثة ببيعها أو هدمها أو حتى حرقها لإيجاد المبرر للتصرف بها وبقصد اقتصادي.[٨](وهذا حدث بالفعل بعد ٢٠٠٣/٤/٩ في بغداد وغيرها في محافظات العراق عند غياب السلطة والقانون الذي كان إلى حد ما يحمى الموروث)يضاف إلى ذلك التباس مفهوم التخطيط المدينى لدى بعض المختصين في كثير من المدن العربية،واقتصاره في كثير من الحالات على شق الشوارع والطرق وأحياناً بطريقة عشوائية أو تقرب من ذلك وخاصة في المناطق الحضرية الموروثة،مما ترك هذا الموروث على شكل جزر مبعثرة ومحاطة بهذه الشوارع ،مما تسبب في ضياع الكثير من الموروثات العمرانية والمعمارية دون القدرة على تعويضها ،كمل أن محدودية المعلومات المتوفرة عن النسيج الحضري الموروث لنسبة عالية من الناس ولبعض من الجهات السياحية والبلدية والتخطيطية قد يقلل من قيمة هذا الموروث لديهم،بل أن بعضهم يربط بين التخلف والموروث ويعتقدون بعدم ملاءمته للعصر ومتطلباته.[٩] وبذلك فأن المشكلة أمام المخطط الغربي لم تعد توجيه نمو المدينة في الطريق السليم فقط بل أصبحت المشكلة الأساسية أمامة هي تهيئة الظروف الاجتماعية والطبيعية التي تساعد على ارتباط السكان عاطفياً بمدنهم حتى يمكن لمخططاتها المستقبلية أن تتفاعل معهم وتنمو نموها العضوي السليم،ومن خلال الخلفية التاريخية للمدن يمكن التعرف على الفترات الحضارية الهامة التي غرست جذورها القوية في مقومات المدينة وحياة سكانها وحتى يمكن اللجوء إلى تحليل هذه المقومات

[٧] المالكي والبياتى،٢٠٠٠،ص١٣٠-١٣١
[٨] الأشعب،١٩٨٤،ص٨
[٩] الأشعب،١٩٨٤،ص١٠

واستخلاص النتائج التي يمكن بها ربط التراث الحضاري لهذه المدن بتخطيطها العمراني الحديث بالرغم مما تعرضت له هذه المدن بتخطيطها العمراني الحديث من حضارات غريبة عنها.[١٠]

ولايقف دور الأنسان في ضياع جزء من الموروث عند هذا الحد فربما هدمت الأبنية لأسباب فكرية مرتبطة بتغيير العصر ومعايير التذوق للنتاجات المعمارية كما وتقف الأسباب السياسية وراء هدم جزء من الموروث ناهيك عن أعمال السرقة والنهب والتخريب .....الخ،وتقف الحروب التي تهدد البني الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية والبنى التحتية وتبعاتها كأحد أهم الأضرار البشرية بالموروثات،الحروب التي تطال كل شئ بما في ذلك العمران والموروث منه خاصة بحكم ما مر عليه من الزمان الذي يجعله بحاجة إلى الأدامة والصيانة المستمرة،لا التخريب والهدم،وعندما تتحدث وسائل الأعلام عن المدن التي دمرتها الحروب متركز أكثريتها على موضوع تدمير المعالم الأثرية والأبنية التاريخية،ونحن حين نركز على الموروثات لا ننسى أنها كائنات حية ضمن نسيج حضرى متكامل يجب أن تتجانس معه في نظرة متفائلة للمستقبل.

بعض تجارب الحفاظ على الموروث

يعد الحفاظ أبرز الأساليب المتبعة في عمليات التجديد الحضري، إذ يقترن بالمناطق أو المباني ذات الأهمية التاريخية أو التراثية،وقد عرف الحفاظ بأنه (الإجراءات التي تكفل حماية الخصائص المعمارية والتاريخية للمناطق والأبنية القديمة ذات الأهمية البالغة،متمثلة بإصلاح أو إزالة علامات التآكل والتهرى، وتأمين معايير مقبولة لحماية الفضاءات المفتوحة والساحات العامة)

كما يعرف بأنه(صيانة المناطق الحضرية أو المباني التي تتمتع بواقع عمراني جديد،على أن ترتبط علمياً مع استعمالات الأرض ومتطلبات الكثافة السكانية للمنطقة ككل،مع تحسينات عامة تؤكد كفاءتها وأستمراريتها الوظيفية)

كما يفهم الحفاظ الحضري بأنه (عملية تهتم بنوعية البيئة الحضرية،بوضع برنامج لحماية المدن والمناطق الحضرية وابعادها عن التلوث البيئي والبحري[١١]

ويتم الحفاظ من خلال مستويات مختلفة اعتمادا على حالة المبنى والعوامل التي أدت إلى تدهوره والوظيفية المستقبلية المطلوبة منه، وهذه المستويات هي وبشكل موجز،وكما يقسمها البروفسور- B (Ernard Feilden) في مقالته (The principles and methodology of conservation) هيprevention منع التهرئ،Reservationالإبقاء،Restorationالصيانة، التقوية Consolidation، Reconstitution إعادة التشكيل، التكيف لاستعمال جديد أو rehabilitation

[١٠] أحمد،نبيل حسن حسن،١٩٨٨ ،ص٦٧

[١١] الياس،١٩٨٩،ص٤

إعادة التأهيل،إعادة الإنتاج(الاستنساخReplication) ،[١٢] Reconstruction إعادة البناء(أمر إعادة تجديد البناء).

لقد اتخذت منظمة اليونسكو عدة توصيات في مجال حماية التراث الحضاري لدول العالم عام١٩٦٢ ثم عام ١٩٦٤،وكان الموضوع الأساسي للمؤتمر الدولي للمعماريين الذي عقد في براغ في يوليه عام ١٩٦٧ هو (التراث الحضاري والعمارة المعاصرة وبيئة الأنسان)، وتقول توصيات المؤتمر بعد ذلك"أ،الحاجة الحقيقية هي تنمية وتقوية التعاون بين من يريد للماضي استمرار الحياة من يتبصر الحياة الإنسانية ويعمل على توفير حالات معيشية أفضل لها في المستقبل".وأن هذا التعاون يتم في كثير من الدول عن طريق تخطيط المدن ،فتخطيط المناطق القديمة سوف يتغير مما يتطلب نوعاً آخر من السكان يتناسبون مع البيئة الجديدة والاستعمالات الجديدة.[١٣]

ظهرت في العقود الأخيرة من القرن العشرين كثير من المحاولات التي هدفت إلى ربط وتجانس التخطيط العمراني بالمحيط التاريخي ذي تراث الحضاري ومن أهم هذه المحاولات ما ظهر في السنوات الأخيرة في الأعمال المعمارية لكانزوتانك وكوريكاوا، وحاولت هذه المدرسة الارتباط بالتراث الحضاري للعمارة اليابانية وظهر في كثير من أعمالها المعمارية العمق في تفهم القيم المعمارية للعمارة اليابانية القديمة وربطها بأحدث الوسائل الإنشائية مما يضمن لها التعبير عن الاستمرار الحضاري.

وفى فرنسا محاولة جادة فمدينة باريس يوجد بها القوانين الخاصة لحماية التراث الحضاري للبلاد وصدر بها قانون تخطيط المدن الذي يعالج المناطق ذات التراث الحضاري وهو من مسئولية وزارة الإسكان.[١٤] والى جانب ما تقدم تتضح تجربة الحفاظ على الموروث في الكثير من دول العالم المتميزة بثرائها التراثي فإنكلترا أولت تراثها اهتماما خاصا عند نهاية القرن التاسع عشر وهناك إيطاليا وفرنسا وألمانيا واليابان وتركيا وأسبانيا وفيها إشارات عديدة على عودة الوعى بقيمة التراث الأندلسي ورد الاعتبار للثقافة العربية الإسلامية،بعد خمسة قرون على سقوط غر ناطة،وأبرزها تشييد مسجد في حي البيازين إلى جوار قصر الحمراء الذي ما زال يقف شامخاً كأبهى مظاهر الحضارة الإسلامية بالأندلس،ويؤكد السيد خير ينمو بابيس،رئيس مؤسسة التراث الأندلسي الأسبانية بأن مشروع إحياء التراث والثقافة الأندلسية يشكل صدمة ثقافية في الغرب،ويؤكد ضرورة التشديد على المضمون الثقافي للتراث،مؤكد أن التراث العربي الإسلامي له حضوره في عدد من المناطق الأوروبية المتوسطية مثل إيطاليا وصقلية ولكنه أقوى حضوراً في أسبانيا،وقد يتوسع جهد هذه المؤسسة على الصعيد الأوروبي.[١٥]والى جانب أسبانيا سويسرا والولايات المتحدة الأمريكية التي يعتبر تراثها

---

[12] FEILDEN,1978, p10

[١٣] أحمد،نبيل حسن حسن، ١٩٨٨،ص٧٤

[١٤] أحمد،نبيل حسن حسن، ١٩٨٨،ص٧٤-٧٥

[١٥] السليمى،منصف،٢٠٠٣

حديثاً وفنياً مقارنة مع الآخرين،أما دول الوطن العربي فهي الأغنى في تراثها سواء اليمن أو تونس أو مصر أو مغرب وسوريا وعمان وقطر والإمارات والبحرين والأردن والسعودية والعراق وغيرها،أما المنطقة العربية فقد تميزت عن باقي المناطق في العالم بأنها تحتوى على أقدم الحضارات الإنسانية التي عرفها الأنسان،وبذلك تعتبر المنطقة العربية من أغنى المناطق التي تحتوى على التراث في العالم،إلا أن انبهار الأبناء بالحضارة الغربية الحديثة ولد العداء للحضارات القديمة المحلية،حيث وجدوا في الحضارة الغربية الحديثة وحتى القديم منها التقدم والرقى فكان نتيجة ذلك أنهم قاموا بنسف ماضيهم وهدمه.[١٦]

الاومن التجارب العربية في الحفاظ ما نراه في سلطنة عمان وعمارة الحصون فيها والقلاع والقصور حيث أن هذا القطر ملئ بالقلاع والحصون التي تعود للقرن السابع عشر والثامن عشر التي كان يسكنها الكثير من الأغنياء، فتأسست وزارة للتراث الوطني في العقود الأخيرة من القرن العشرين للقيام بالحفاظ واعادة تأهيل هذه الموروثات.[١٧]وتقوم في مصر جهود متميزة في الحفاظ ومنها تجربة الحفاظ والتقوية لخمسة من القصور المملوكية في وسط القاهرة من القرن الخامس عشر في عهد المملوك قايتباى حيث تمت تقوية الآثار المتضررة لأكبر هذه القصور المسمى بيت الرزاز .Bayt Al-Razaz.[١٨]وتمتلك مصر اليوم خطة قومية لتوثيق التراث المعماري في القاهرة على الطراز الأوروبي حيث يعتبرها د.صالح لمعي دليل على تمازج الحضارات بين الشرق والغرب، وأشهرها الخديوية وجروبى وتيرينج وبهدر وحيث قام المركز القومي للتوثيق الحضاري(أنشئ في الأول من يناير ٢٠٠٠)بأفراد جزءاً من المشروع خاصاً بالطراز المعماري في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ،وبعد توثيق التراث المعماري لوسط البلد بمثابة بداية لتوثيق التراث المعماري في كل أحياء القاهرة.[١٩]

واخيرا تتفق اكثر المصادر على جعل سياسة الحفاظ على الخزين الحضري و المعماري الموروث متضمنة جانبين ،يعتمد الأول فيها مختلف العمليات الإبداعية التي تهدف إلى تطوير و زيادة جمالية و كفاءة الوحدات التخطيطية الموروثة معماريا و وظيفيا مع ملاحظة شكل القطع و طرز العمارة و علاقة ذلك بأنماط فضاءات الشارع ،و ذلك يستدعى أجراء تحويرات داخلية أو خارجية مع تحسين الخدمات و البني التحتية وفق الوظيفة التي يراد من الوحدة التخطيطية (أو المبنى الموروث) أن تقدمها بعد الحفاظ عليها . مع الأخذ بنظر الاعتبار إمكانية تبديل الوظيفة اكثر من مرة ، و هنا تجدر الإشارة إلى أن شكل و نمط قطع ارض الوحدات الموروثة و فضاءات الشارع

---

[١٦] إبراهيم،محمد عبد العال،١٩٨٨،ص٢٥

[17] Lew Cock, Ronald, 1978, p.66

[18] Lew Cock, Ronald, 1978, p.69

[١٩] باشا،أحمد،٦٢/٧-٢٠٠٣/٨/١

عنصرين يتصفان بالثبات مقارنة مع الوحدات المعمارية نفسها و طرزها ، مما يجعل مناطق الخزين الموروث غنية بالتراث التخطيطي و أن تبدلت وحداتها المعمارية

أما الجانب الثاني من سياسة الحفاظ على الخزين الحضري العمراني و المعماري الموروث فيهتم بمعالجة الوحدات التخطيطية التي تقام حديثا و بطريقة لا تجعلها تتنافر أو تسيء إلى الخزين الموروث [٢٠] أن كل ما تقدم يؤكد ضرورة الحفاظ على الموروث و الذي لا يتعارض في مضامينه مع احترام العصر و التناغم معه ما دمنا لا نتنكر لتراثنا .

الحرب و التراث

يرى " فرنشيسكو فينيزيا " في الدمار الناجم عن الحروب او عن العوامل الطبيعية ، او حتى عن حالات التدمير المقصود ، مناسبة نكشف من خلالها فى الأنظمة المعمارية و التنظيمية المدينية القائمة ، عوامل صلة تسمح بخلق قيم جمالية جديدة ، و تصبح مهمة المهندس المعماري اذ ذاك الانطلاق من هذه المعطيات بغية تجديد المدينة دون خيانة التراث [٢١] حول عمليات أعمار المدن التى دمرتها الحروب تدور الآراء حول بناء المدن التى دمرتها الحروب أم إعادة بنائها ؟ و بتعبير آخر : هل نعتبر اعادة البناء مجرد عملية ترميم تؤدى الى عودة البناء المرمم الى الوضع الذى كان علية تماما ام اقامة بيئة افضل ترتكز على تصور جديد تماما ؟ و هذا ما يدور بين دعاة المحافظة على القديم و دعاة التجديد ، فإعادة اعمار فرصوفيا كان مناسبة لاحداث تغيرات هامة ، حيث تمت اعادة اعمار وسط فرصوفيا التأريخى انطلاقا من نظرة مثالية انتقالية تستند الى مبدأين ، إعادة تكوين الماضي و إعادة [٢٢] تصورة هذا ما اكدة بوغدان و بيوريك الذي وصف إعادة أعمار وارسو بعد الحرب العالمية الثانية و قد دمرت الحرب فيها من اصل ٩٥٧ مبنى تأريخيا ، بشكل كلى ٧٨٢ مبنى ، و بشكل جزئى ، ١٤١ مبنى ، بينما لم يسلم سوى ٤١ و قد انطلق الأعمار من المخططات التى وضعها مكتب اعمار العاصمة فى الفترة الممتدة من ١٩٤٥ حتى ١٩٤٩، و أهم خصائص هذة المخططات تمثلت بإعادة أعمار مجمعات تاريخية و أهم المباني التأريخية ، مع تحويل و تطوير البنية المدينية لوسط العاصمة ، لتحسين شروط العيش و الوضع البيئي و الوظائفي ، و قد برر المشروع الذي اعد في ١٩٤٦ فكرة إعادة بناء الوسط التاريخي ـ الذي دمره النازيون عن قصد ـ على ما كان عليه ، و قد تأكدت رسميا الأهمية الثقافية لهذا الموقع ، حيث وضعت مدينه وارسو القديمة على سجل التراث العالمي سنة ١٩٨٠ م كما شمل

---

[٢٠] (الاشعب ، ١٩٨٤ ، ص ٥)

[٢١] (الحداثة و التراث ، ١٩٩٧،ص١٧)

[٢٢٦] (الحداثة و التراث ، ١٩٩٧ص ١٦)

الأعمار [٢٣]تحسين السكن و الابنيه السكنية بشكل جذري مع تحديث شبكة الطراقات و قد أكدت تجربه وارسو أن إعادة بناء المجمعات و المباني التاريخية هو آمراساسى للحفاظ على هوية المدينة ، بنظر الاعتبار الاستجابة مع مع الآخذ المتطلبات الثقافية و الاجتماعية للأجيال القادمة.

وبديهي و كما يتفق الكثيرون فأن إعادة الأعمار تعنى الاستجابة للضرورات الملحة التي يطالب بها الناس المسحوقون ، و الحد من آثار الصدمات النفسية التي نجمت عن أعمال العنف ، و المحافظة على المعالم التي تؤمن الحد الأدنى من التماسك الاجتماعي ، ذلك أن الحرب تتسبب فى غالب الأحيان ، في نشوء حالة من الارتهان الثقافي الذي يضعف العلاقات القائمة بين المدينة و سكانها . و بذلك فأن إعادة الأعمار الناجحة تفترض موافقة و رضا المجتمع بكامله و يعتبر " فلاديمير بيلويوسف " أن إعادة الأعمار التى تمت في روسيا كانت ترجمه لتعبئة قومية شاملة للشعب الروسي.[٢٤]

و فيما يخص تجربة روسيا بعد الحرب العالمية الثانية فقد تم ترميم المدن التي دمرت كليا خلال الحرب العالمية الثانية فى الوقت الذي كان يتم فيه بناء مدن جديدة في القسم الشرقي من الاتحاد السوفيتى (سابقا) و من اصل (١٧١٠)مدينة دمرت خلال الحرب ، تم في المرحلة الأولى ترميم تلك التي كانت تتمتع بتراث تأريخي و تم تحرير ضفاف الأنهار من المعامل و المستودعات لتحويلها إلى حدائق عامة و أماكن للراحة و الاستجمام . أما المعامل الملوثة فلم يعد إنشاؤها و لا ترميمها ، و كان أهم المعماريين الروسيين على رأس مجموعات العمل ، و يعتبر تصميم المدن و العمارة في هذه التجربة في المناطق المدمرة بعد الحرب متميزا بالابتكار مع الحفاظ على التقاليد الوطنية .[٢٥]

أما موستار إحدى اهم المدن التاريخية في بوسينا هرز غوفينا ، فهي خليط من العمارة الإسلامية و النمسوية الحجرية و العمارة الحديثة . و بدأت المدينة تنمو بعد بناء الجسر القديم علي نهر نرتغا عام ١٥٦٦ . تغير كل شيء سنة ١٩٩١ عندما بدأت الحرب الأولى حيث قاتل الكروات و المسلمون فقد أنتجت دمارا اعظم في المدينة ،و أصابت الحرب ٨٠ % من مباني موستار الشرقية و أصاب التراث الثقافي إذ دمرت كافة المساجد و المقابر الإسلامية و دمر الجسر القديم خلال قصف مركز دام يومين في شهر تشرين الثاني ١٩٩٣ .

عملية الأعمار بدأت ببطىء و تتسارع مع الوقت ، فقد أعيد بناء ثلاثة جسور بالإضافة الي عدد من المدارس و المستشفيات و المساكن ، كما أعيد بناء قصر العدل ، و

---

[٢٣](ويبوريك بوغدان ١٩٩٧، ص١٩)

[٢٤] ٨ (الثوابت و المتحولات ، ١٩٩٧، ص٣٠ ـ٣١)

[٢٥]بيلو يوسف فلاديمير؛١٩٩٧ : ص ٦١.

لازالت موستا تنظر بأمل إلى المستقبل ، محاولة الحفاظ علي تراثها الثقافي و هي تواجه تحدي الأعمار[٢٦]

و في فيتنام فقد مرت تجربة إعادة الأعمار بثلاث مراحل منذ انتهاء الحرب ١٩٧٥ ، المرحلة الأولى من ١٩٧٥ ـ ١٩٧٩ تميزت بكونها مرحلة إعادة توحيد البلاد و بناء نظام اقتصاد اجتماعي متكافل علي أساس التخطيط المركزي ، و المرحلة الثانية من ١٩٨٠ـ ١٩٨٦ فتخص جانب الاقتصاد و الثالثة جاءت لتجديد السياسة الاقتصادية و تطوير كافة القطاعات و الانفتاح علب الخارج ، و هذا التطور المديني الذي تشهده فيتنام اليوم يطرح علي المعماريين و مخططي المدن ـ كما يري هاي نغو ترونغ ـ مهام كبري تتمثل بحماية المباني الثقافية و التاريخية المعرضة للخطر بسبب ما تم من أبنية حديثة مع ضرورة تأمين الانسجام مع الأبنية الحديثة و البناء التقليدي في وسط المدن التاريخية و المحافظة علي القيم االاساسيه للعمارة التقليدية التي تراكمت علي مر السنين ، مع ضرورة آلا تؤدي عملية الأعمار إلى تهديد التراث و تعريضه إلى الخطر[٢٧] .

آما ما يقوله بيار فاغور " حول تجربته بأبعاده أعمار مدينة أرل التاريخية جنوب فرنسا و هي مدينة تعاقبت عليها الحصارات و ارتقت أثارها في العمارة و الشكل المديني : ـ " كان وسط مدينة أرل التاريخي قد دمر نتيجة القصف المتواصل الذي تعرض له خلال الحرب و اول قرار اتخذته قضي بعدم المباشرة بأعمار الوسط قبل وضع خطة شاملة لتنظيم المدينة ككل ، قد باشرت فعلا بأعداد مخططات تفصيلية لإنشاء أحياء جديدة علي الضفة المقابلة لنهر الرون ، لاستيعاب ألوف السكان الذين فقدوا منازلهم خلال الحرب ، و قد تم بناء نواة جديدة تمحورت حولها أربع وحدات سكنية تربطها بالوسط القديم شبكة مواصلات للنقل السريع مع احترامها للمقياس الإنسانى ، مما سمح بخلق بيئة متناسبة مع طابع المدينة الأصيل و بعدها عدنا لمعالجة قضية اعمار الوسط القديم " .وقد اتبع في هذه المعالجة مبدأ الحفاظ على طابع المدينة بشوارعها وازقتها الضيقة ونسيجها التأريخي وكنائسها وآثارها، فانتجت مدينة ترتبط بالتراث، دون اللجوء إلي التقليد أو المسح التأريخي.[٢٨]

أما عن تجربة لبنان فيقول عنها السيد رفيق الحريري مناقشا مقولة المهندس عربي قديما " قديما قال مهندس عربي " الهندسة فن تشكيل العالم " ثم أضاف : " لقد كانت كذلك لأنها سعي في المكان و الزمان و الإمكان " بيد أن صاحب هذه الرؤية ـ كما يقول السيد الحريري ـ البديعة للهندسة ما أضطر لتجربة رؤيته تلك بعد حروب خربت المكان ، و كادت تحول دون تعقل الزمان ، و الموقف في لبنان مع نهاية الحرب جعل

[٢٦] كورت ، تجما ص ٩٦.
[٢٧] ترونغ ، هاي نغو ؛ ١٩٩٧؛ ص٨٩ .
[٢٨] فاغو ، بيار : ١٩٩٧ ؛ ص ١٤٦ ،

السعي في الإمكان ، كما أن الزمان داخله التغير و التبدل و كان أعاده البناء و الأعمار بإمكانيات اللبنانيين و دعم إخوانهم و اصدقاهم ، كانت الخطة شاملة و ضرورية " . و ذلك حيث أن أعاده الأعمار تطرح قضايا متشعبة ، قضايا أقتصادية ترتبط بعملية التمويل و تحديد الأولويات ، قضايا اجتماعية تعني السكان الذين آلمتهم الحرب في ظل وضع مأسوي يهدد ديمومة المعالم التي تضمن تماسك النسيج الاجتماعى ، قضايا ثقافية تتعلق بضرورة الحفاظ علي التراث المعماري و المديني و الانفتاح علي الفرص التي تقومها الحياة المعاصرة ، بالإضافة إلى كيفية التعاطي مع التكنولوجيا المستوردة و تطوير المهارات المحلية ، و قد أحدثت الحرب تلوثا عمرانيا للمناطق السكنية ، و انتشارا للفوضى في البناء . فشوهت المناظر الطبيعية و الشواطئ ، و هدم التراث المعماري ، و قد أدي حصر الخطط الآعماريه بالجانب الاقتصادى و المالي الصرف ، و من معالجة القضايا الاجتماعية و الثقافية و البيئية إلى فقدان التوازن بين فئات المجتمع و إلى تفشي أشكال جديدة من النمو العشوائي طالت المناطق المهدمة مما أفقد لبنان الكثير من خصوصياته الجمالية و الحضارية .[٢٩]

و يري الأستاذ سامي نحاس " أ ن الخيارات التي كانت متاحة لأعمار المناطق المتضررة بسبب الأحداث اللبنانية تتلخص بخيار الآستملاك الكامل للمناطق المدمرة و إعادة تأهيلها و ترتيبها و بنائها من قبل الدولة آلا أن هذا النهج يتطلب قيام الدولة بتعويض المالكين و يتطلب أيضا أعاده بناء البنية التحتية و هذا يستلزم أموال غير متوافرة لدي الدولة ، و الخيار الثاني هو قيام الدولة بإعادة البنية التحتية و ترك مجال الأعمار للمالكين و المستأجرين أنفسهم و تكمن صعوبة هذا الخيار بتفتت الملكية و تباين الحقوق بين المالكين و المستأجرين فلابد من عمل متكامل و منسق ، و الخيار الثالث هو التوجه للشركات العقارية كوسيلة لترتيب المناطق و أعمارها ، علي آن تكون الدولة قادرة علي مشاركتها بالأموال و حيث ان ذلك صعبا انطلقت فكرة إفساح المجال للقطاع الخاص لتأمين الجزء النقدي من رأسمال الشركة شرط إقامة تعاون و توازن بينهم و بين المالكين و أصحاب الحقوق ، و من هنا نشأت فكرة وضع إطار قانوني جديد لإتمام عملية إعادة الأعمار .[٣٠]

آلا أن حملة الأعمار هذه في طرابلس لبنان مثلا خلقت ـ كما يري عطا جبور ـ حالة من التعارض الشديد بين وسط المدينة و الابنيه الحديثة التي شيدت في المدينة ، فجاءت بعض الآبنيه مشوهة ، فالحفاظ علي القيم التاريخية و الثقافية أقتصر علي ترميم بعض الأجزاء منها ، و أما حلم المباني القديمة فقد شكل فهما خاطئا للحداثة حسب فهم بعضهم ،فالمجتمع الذي لا يتواصل آلى معرفة ذاته الثقافي من خلال تراثه يفقد نسيجه الإنسانى

[٢٩] سلام عاصم ،١٩١٧ ، ص٦

[٣٠] نحاس سامى ١٩٩٧ ص ١١٧ ـ١١٨

الذي يميز نسيجه العمراني ، و الذي لا يمكنه المحافظة علي القديم لا يمكن أن يبني جديدا آلا بالمعني الذي يشوه الحياة الاجتماعية المعاصرة .[٣١]
فكان لابد من وضع خطة شاملة لحصر القيم التراثية المعمارية بوسط المدينة و أعاده أحيائها بالشكل اللائق و الذي يتناسب مع ضرورة الحفاظ علي تاريخ المدينة العمراني.
و لعل ما تعانيه القدس من تغريب و تحول حضري مثالا يستوجب توقفا قليلا ، القدس تواجه مشكلة الحفاظ علي هويتها و القدس هي مثال خاصة لحالة عامة لغزو التكنولوجيا و القيم الغربيتان ، بل هي الحالة الأكثر تطرفا و الأكثر إيلاما - كما يري إبراهيم الدقاق - فهي مدينة بخلقية تاريخية لم تفسدها الأمراض الحضرية المعاصرة نسبيا .[٣٢]
و القدس تواجه تحديات مختلفة و علي كافة الأصعدة ،و يمكن أيجاز أعمال الأعمار في البلدة القديمة بثلاثة قطاعات هي الأبنية الدينية الإسلامية و المسيحية و الأبنية الأثرية و الأبنية السكنية ، وكان إنجاز الأوقاف الإسلامية في أعمار الأبنية الأثرية ، و في حدود الإمكانات المادية التي توافرت لها ، مناسبا ، و لكن الأبنية الأثرية التي تنتظر الأعمار ما زالت كثيرة .[٣٣]
و أخيرا نؤكد أن هدف أعاده أعمار مدينة ما ، هو باستمرار ،ترميم أو إعادة بناء أو إعادة تأهيل الأحياء أو الأنسجة الممزقة ، آيا كانت ملابسات تدميرها أو تاريخه، فجميع خطط إعادة الأعمار ،أيا كانت فرضيتها العقائدية المسبقة ، انصرفت إلى تصحيح الوضع الذي كان قائما قبل حصول الدمار ، و قد أدى الأعمار آلى إدخال تغيرات هامة علي البنية المدينية للمدن التي أعيد أعمارها ، أكان في مدينة " الهافر " الفرنسية. التي قدمت كمثال للتنظيم المديني التحديثي ،أو في برلين ، التي كانت طول عقود عدة [٣٤]مختبرا للفن المعماري الحديث ، و فرصوفيا التي اعتبرت نموذجا لعملية أعاده أعمار وسط المدن التاريخية ،بحيث انه يستحيل في أي من المدن التي ذكرناها أن نجد البنية و قد عادت تماما إلى ما كانت عليه قبل التدمير .[٣٥]
كل ما تقدم علي ما قلته - يعطينا دروسا مفيدة في أعمار بغداد و الحفاظ علي مورثها مؤكدين أن الحفاظ لا يعني الإكثار من المتاحف و فصل المباني الموروثة عن الحياة المعاصرة ، مع ضرورة مراعاة تغير الإنسان و تغير حاجاته ليأتي النسيج الحضري و الطراز المعماري متجاوبا مع ذلك التغير و ضرورة حماية الأبنية الموروثة من الأطماع الاستثمارية لاصحابها قبل غيرهم مما يتطلب أشراف تخطيطي و معماري محاولين من خلاله تنمية و تقوية التعاون بين من يريد للماضين استمرار الحياة و يعمل علي توفير حالات معيشة أفضل في المستقبل فالحفاظ علي الموروث لا يعني عدم بناء

---

[٣١] جبور ،عطا ١٣٣،١٩٩٧
[٣٢] الدقاق ،إبراهيم ، ١٩٩٧ ،ص ٣٧
[٣٣] الدقاق،إبراهيم ،١٩٩٧ - ٢٤
[٣٤]تابت ،جاد ، ٢٣،١٩٩٧ -٢٤

الجديد و لا يعني ترميم القديم فقط . بل فهمه و إعادة تأهيله و لنضم صوتنا آلى" فرنشسكو نفينيزيا " و نعتبر ما ينجم عن الحرب و غيرها مما يضر التراث فرصة للانطلاق نحو تجديد المدينة دون خيانة التراث .

و ليكن لنا وقفة أمام تجربة فرصوفيا التي وضعت أعاده أعمار المجمعات التاريخية خطوة مهمة في تطوير البنية المدينية لوسط العاصمة و نعتبر أعاده الأعمار استجابة للضرورات الملحة التي يطالب بها الناس و أن الابتكار مع الحافظة علي التقاليد الموروثة مهما في نجاح هذه العملية حيث تكون حماية الموروث جزء من عملية تخطيط و أعمار و تطوير شاملة لإزالة كل أثار التلوث العمراني للمدن بالتعاون بين القطاعين العام و الخاص و من لا يملك القديم لا يمكن أن يبني جديدا .

الحرب و أنين موروث بغداد

من الثابت تاريخيا أن فن العمارة نشأ في بلاد الرافدين منذ أقدم العصور ، و قد شهد العالم قبل آلاف السنين نشاط البناء العراقي في هذا المضمار ، فكان إبداعه و تفننه في البناء و الإنشاء ، رغم قله ما لدية من مواد ،ما يبهر الناظر و يستحق كل إعجاب و تقدير . [٣٦] و العراق مهد الجنس البشري و موطن الآثار العظيمة في كل مدنه و لعل عاصمته بغداد حاضرة الدنيا و شاغلة الأزمان كما يصفها المؤرخون زاخرة بالمورث و التراث منذ أن بناها المنصور في ١٤٥ ه / ٧٦٢م و لا زالت آثار بغداد دار السلام في العصر شاخصة و أن كانت قد تناقصت حتى لم يبق من بغداد العباسية ألا ثمانية شوا خص فقط كما وردت في كتاب (بغداد بين الأمس و اليوم) حيث أن مآسى التاريخ الكبرى ، هو ما تعرضت له بغداد من همجية الغزوات و قسوة الطبيعة و الفيضانات المتعاقبة ، و التخريب الإنسانى ، فلم يترك لبغداد من عمرانها بقصورها و قلاعها و مساجدها و حدائقها و منازلها و مدارسها و أسواقها - التي كانت تضرب بها الأمثال بروعتها و غناها المعماري - سوي ثمانية ابنيه فقط لم ينج أغلبها من التغير ، بسبب محاولات التعمير و الصيانة غير العلمية . فلم يبقي من المدورة اثر واحد فيما عدا محراب الخاصكي الذي يعتقد أنه يعود إلي جامع المنصور حاليا في المتحف العراقي (و لا ندري حاليا هل هو موجود أم لا) [٣٧] . و الشواخص الثمانية هي :

١. باب الظفرية (الباب الوسطاني حاليا) (شيد بين عامي ١١١٨ م و ١١٣٥ م كجزء من السور الذي بدأه الخليفة المستظهر و أكمله المسترشد
٢. جامع الحظائر (الخفافين حاليا) شيدته زمرد خاتون عام ١٢٠٠ م و الأصيل فيه هو مئذنته .
٣. ضريح زمرد خاتون : شيدته لنفسها والدة الخليفة الناصر في ١٢٠٢ م .

[٣٦] يوسف ، ١٩٨٢ ، ص ١٥
[٣٧] جبرا ،فتحي ،١٩٨ ، ص ٩٢

٤. جامع و ضريح الشيخ معروف الكرخي : شيد عام ١٢١٥ م في عهد الخليفة الناصر ، و الأصيل فيه هو المئذنة .
٥. القصر العباسي : شيده الخليفة المستنصر حوالي عام ١٢٢٦ م ، و يذهب البعض إلى انه المدرسة الشرابية .
٦. جامع قمرية : شيد في عهد المستنصر عام ١٢٢٨ م و الاصيل فيه المئذنة فقط.
٧. المدرسة المستنصرية : شرع الخليفة المستنصر ببنائها عام١٢٢٧ م و أنجزت في عام ١٢٣٣م .
٨. جامع و ضريح الشيخ عمر السهو ردى ، شيد في عهد المستنصر ، في عام ١٢٣٤ م ، وهو يقع قرب الباب الوسطاني .

بغداد العباسية هجرها المعتصم الي سامراء سنة ٨٣٢ م و عاد المعتمد في القصر العباسي المتأخر ٨٨٩م ، سقطت علي يد المغول في كانون الثاني ٦٥٦ ه / ١٢٥٨ م و دمار بغداد علي يد هولاكو يعرفه القاصي و الداني و ذكرته كتب التاريخ و وصفت انهار الدماء لكثرة الضحايا كما وصفت ما نال التراث الثقافي و الحضاري علي يد المغول ، و مع صعوبة تقدير الخسائر المادية التي سببها هذا الغزو عاشت بغداد بين الايلخانيين و الجلائريين و تعافت بعد دمارها و و أيضا أضافت بغداد مآثر عمرانية و معمارية منها مدرسة و جامع مرجان . و خان مرجان و زينت سماء بغداد مآذن بنيت في عهد تيمور بك مثل جامع العاقولي و الآصفية و جامع السيد سلطان علي حتى نصل آلى الأتراك العثمانيين في بغداد و سنبدأ من هذا العصر مما عانت منه بغداد من تخريب لمأثرها التاريخية و التراثية عاما أن هذا العصر ترك مآثر متميزة لبغداد من أمثال سري بغداد و القشله و مساجد كثيرة متميزة (جامع براثا) جامع الحيدر خانه) .

لقد دخل السلطان العثماني مراد الرابع بجيشه مدينة بغداد من باب الطلسم (باب الحلبة) و ذلك عام ١٠٤٩ ه /١٦٣٩ م و آمر بسد الباب و قال :"سوف لن يدخل من الباب فاتح من بعدي في المستقبل " ، و أستمر حكم العثمانيين نحو اربعة قرون ، [٣٨] عجاف عاشتها بغداد ، كادت ان تدرس في عهد العثمانيين و من اشهر ولاة العثمانيين الذين حكموا بغداد ، الوالي مدحت باشا ، و مع ما قدمه لبغداد الآ انه حرمها من سورها • حيث هدمه عام ١٨٧٠ م ، للاستفادة من اجره ، طمعا في حفنة من الدراهم

[٣٨] يوسف ١٩٨٢ ،ص ، ٥٤١

• أحيطت بغداد الشرقية (الرصافة) بسور عظيم و خندق واسع ، شرع ببناءه المستظهر بالله و قام الوزير عميد الدولة ابو منصور محمد بن محمد المعروف بابن جهيز التغلبي بتخطيطه سنة ٥٤٨٨ / ١٠٩٥ م ، و أتمه الخليفة المسترشد بالله سنة ٥١٢ ه م ١١١٨ م ، و له أربعة أبواب (باب السلطان (باب المعظم) ، باب الظفرية (باب الوسطاني) ، باب الطلسم (باب الصلبة) باب الكلواذا (باب الشرقي) يوسف ص ٣٧٧ ، ١٩٨٢ م

كما يري [٣٩] أو كما ترد في بعض المصادر لبناء القشلة و مدرسة الصنائع من اجره !
أما أبواب هذا السور الأربع فقد نسف الأتراك باب الطلسم (باب الحلبة) سنة ١٩١٣ في الحرب العالمية الأولى عند تركهم بغداد [٤٠] و هدم الإنكليز باب السلطان (باب المعظم بعد احتلالهم بغداد) و هدم باب كلواذا (الباب الشرقي) في اوائل القرن العشرين لغرض توسيع العراق ، و لم يبق الا باب الظفرية (الباب الوسطاني) و هذا الباب في نسيج حضري متميز جاء الطريق السريع (طريق محمد القاسم) ليقسم هذا النسيج ألي قسمين و ذلك في الثمانينات (١٩٨١ م) و ظل هذا الباب يقف طللا محاطا بالقبور يفصله الطريق السريع عن قبور أخري تقف قبة الشيخ عمر السهروردى بينها ، و كانت محاولات في عام (٢٠٠١ م) لصيانة الباب الوسطاني لمدينة بغداد و قصر قرة سراي الموصل ، و اشترك في الندوة استشاريون (كنت من بينهم) من جهات أكاديمية و هندسية و استشارية و كانت التوصية المهمة صيانة الباب الوسطاني و تطويره ضمن نسيجه الحضري مع أعاده تأهيل المنطقة المحيطة به للإعادة الحياة لها بفعاليات معينة ، و قد تم البدء بصيانته و توقف العمل بسبب الحرب الأخيرة (٢٠٠٣) و اكثر ما اضر بهذا الأثر العباسي هو الإهمال وعدم الالتفات له و السيارات تمر قربه مسرعة لا تراه آلا كلمح البصر ، و يري البحث ضرورة الآخذ بيد هذا الأثر الخالد و أعاده تأهيله بوظيفة ثقافية كأن تكون متحف حربي انطلاقا من وظيفته الأساسية لحفظ الآمان لمدينة بغداد ضمن السور مع ضرورة أعاده بناء جزء من السور اعتمادا علي مخططات دقيقة كما بالإمكان إنشاء مدرسة دينية في المنطقة تجاوبا مع طبيعة النسيج الحضري التي تضم ضريح الشيخ عمر السهروردي و قبور أخري ، مدرسة دينية لتحفيظ القرآن الكريم مثلا مع ضرورة إعادة الصلة بين طرفي الطريق السريع بتطوير المنطقة الحضرية تحته للوصل بين الجهتين ، و الباب الوسطانى يستحق منا وقفة أطول و أعمق و لكن البحث أراد التنويه هنا مطالبا بإعادة تأهيل كل المباني التاريخية من أمثال العصر العباسي و المدرسة المستنصرية و غيرها و البحث بنعى الأبواب الثلاث و يحمد الله علي سلامة الباب الرابع متأملا بقاءه و استمرار يته التاريخية .

و قد سقطت بغداد بيد القوات البريطانية في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١١/٣/ ١٩١٧ م ثم بعد عام ١٩٢١ م اشرف علي أمانة بغداد حسام الدين جمعة و ارشد العمرى ، (و هذان عمل معولهما في نسيج بغداد التقليدي الموروث) فقاما بتوسيع و تمديد شارع الرشيد (الذي فتحه الوالي العثماني عبد الوهاب باشا (١٩٠٤ ـ١٩٠٥) بحجة السيطرة علي القلاقل التي يثيرها تمرد آهل الحي) و لم يقف التخريب في هذا العهد عند هذا بل شقوا شارع الخلفاء موازيا لشارع الرشيد علي

[٣٩] علي الثويني / ٢٠٠٣
[٤٠] يوسف ١٩٨٢ ص ٣٧٩

أنقاض البيوت العتيقة التي تتجمل بفناءاتها الرحبة و شناشيلها الجميلة .[٤١] و لا ادري إذا كنا نستطيع آن نغفر لا رشد العمري هدم جامع مدرسة مرجان التي بنيت في ١٣٥٤ م بتأثير توسعة و مد شارع الرشيد ، و في الثمانينات من القرن العشرين تربع شارع حيفا علي نسيج تقليدي تراثي ممتدا في بغداد ليخترق منطقة الكرخ التاريخية .

آما ما عانته بغداد في حروب في عقودها الأخيرة ، فقد جاءت هذه الحروب علي كثير من الدور التراثية التي تأثر هيكلها الإنشائى و عانت من الضعف و تهدمت منها ، ففي الحرب العراقية ـ الإيرانية كان للصواريخ دورها في عملية التخريب و في الحربين الأخيرتين ١٩٩١ م ، ٢٠٠٣ م .

كانت الاصوات المدوية للطائرات لها دورها المضر بهذه البيوت التراثية ، حيث تضم بغداد اربع مناطق تقليدية ذات أهمية تراثية ، الكرخ الاعظمية ،الكاظمية ، و هذه المناطق لا زالت فيها من البيوت التراثية ما يجعلك تقف لها إجلالا ، لحظة تمر بها ، آلا آن الكثير من الأضرار جعلت هذه البيوت التراثية تتناقص و تتباعد عن بعضها فتبدو غريبة بين أبنية معاصرة بطابع غربي و وجود هذه قرب تلك تمثل أحد الأضرار التي تنزل بالنسيج الحضري الموروث ناهيك عن إهمال هذه البنية و عدم صيانتها و ما تتعرض له من أصحابها أحيانا لاسباب استثمارية و غيرها مما تطرق له البحث و إلى جانب البيوت التراثية فأن مآثرنا التاريخية لم تنجو من بلاء الحروب فها هو صاروخ يقع قرب خان مرجان • في الحرب العراقية ـ الإيرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) ألا أن متانة إنشائه تحول دون أصابته بأي أذى رغم ما أصاب الأبنية الحديثة التي تحيط به . أما الحرب الأخيرة فان الضرر بالأبنية التاريخية و التراثية تنوع بينما أتت عليه الطائرات ، و الأشد و الأقصى كان ما يرمي به البشر من نيران حرقت ذلك التراث بعد نهبه و سلبه و الحرب كانت أرحم علي التراث مما جاءت به الظروف بعد الحرب و ها هي اطلاقة من دبابة آتت علي مئذنة الساعة في جامع الأمام الأعظم في ألا عظمية (و هو مقام في زمن السلطان سليمان القانوني العثماني علي أطلال ما تهدم من المشهد و المدرسة و الجامع في العصور السابقة ، و استمر البناء و التعمير من القرن العشرين) و أبنية وزارة الدفاع في باب المعظم و التي تعود بدايتها الي العهد العثماني فقد نالها القصف الجوي كما سكنتها عوائل لا تملك سكنا و لا تملك وعيا بالتراث و أهميته ، فماذا سيكون منها تراثا و عمارة و وزارة الدفاع بأبنيتها الممتدة حتى نهر دجلة تقف جارة إلى العصر العباسي و قصر أم حبيبة زمن هارون الرشيد حيث بني والدها هذا القصر و يقع في منطقة السراي ، و[٤٢]

---

[٤١] الثويني ،(٢٠٠٣)

• خان مرجان أنشأه حاكم بغداد أمين الدين مرجان في عهد السلطان إدريس بن الشيخ حسن سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م دائرة الآثار و التراث اتخذته متحفا للآثار الإسلامية و حاليا هو مطعم سياحي متميز . جواد ١٩٧٠ ص ٦٠

[٤٢] المالكي ، ٢٠٠٢ ،ص ٦٨)

أستخدم هذا القصر كمدرسة (المدرسة العلية)و (مدرسة الصنائع) كما أستخدم قصرا للملك فيصل الأول و مقرا لمجلس الأمة (١٩٣٨) و ثم تحول إلى محكمة عسكرية (محكمة المهداوي) و متحف حزبي (١٩٦٧) و قد أستملك من قبل وزارة الثقافة و الإعلام ليكون في عام ١٩٨٠ م قصرا للثقافة و الفنون و حاليا هو بيت المحكمة ، و يقوم بدور ثقافي متميز آلا انه عاني من الحرب الأخيرة الكثير فتهدم جزء من المبني و احترقت معظمه و نهب و سلب كله و نحن نتألم لما صاب هذا الأثر نحمد الله علي سلامة القصر العباسي الذي يقف آلى جواره . و التراث المادي آلى جانب ما تقدم تعرضت أمثلة كثيرة منه آلى الضرر ، دون أن ننسي التراث الثقافي المكتوب ، أمهات الكتب و خيرة المراجع و المخطوطات التي تعرضت للحرق و السلب حتى تحولت كنوز أجدادنا و جهودهم العلمية آلى تلال من الورق المحترق بل الرماد الذي تذره الرياح فلا يجدي نفعا (حرق المكتبة الوطنية و المكتبة المركزية و مكتبة الأوقاف و المجمع العلمي العراقي ...الخ) و رغم كل هذا فنحن نسعي إلى إعادة أعمار العراق و عاصمته بغداد لتتعافى و تقف شامخة كما وقفت شامخة بعد قرون من الدمار و الغزو ، و ندعو في هذا البحث إلى ضرورة الحفاظ علي الهوية و نحن نعمر بلدنا ، و هذا لا يعني أن نعمر و لا نطور بل يجب أن نضع نصب أعيننا تحسين الوضع مع الوصال بالموروث ، فنؤكد علي الشمولية في عملية الحفاظ علي النسيج الحضري الموروث و الأبنية المعمارية و التراثية المتميزة ، و علينا إدماجها في حياة المدينة من خلال إعادة تأهيلها ، و لا نبقيها مهجورة متروكة طللا لا يمت للحياة بصلة مع ضرورة إظهار الأبنية الحديثة المعاصرة ليكون النسيج المعاصر بكامله متناغما متواصلا يحكي قصة الماضي في حاضر أصيل يضع أسس مستقبل متناغم مع جذوره متجاوب مع التطور التكنولوجي الذي يميز عصرنا الجديد ، أخذين في الاعتبار وضع تشريعات تنظيمية خاصة بكل منطقة من مناطق المدينة سواء منها القديمة أو القائمة أو الجديدة ، و تتضمن هذه التشريعات كافة الجوانب التخطيطية و القانونية ، محاولين الحد مما نفقده يوميا من تراثنا لأسباب كثيرة ، و هنا مسؤولية المعماري تجاه وطنه كبيره و عليه آن يعي أهمية دوره في هذه العملية و المهام الجبارة التي تنتظر معماري و هندسي الغد ،فالمدن تنمو و العالم من حولنا يتطور بسرعة و تاريخنا و تراثنا عظيم ، علينا أن نضع كل هذا نصب أعيننا ، علينا أن نبني اليوم عالم الغد عالم افضل و أجمل و لكنه عالم أصيل ، بنظرة كلية لكل المؤثرات دون تجزئة ، و في تفاعل لكل الجدليات في المكان و الزمان ، كما هو الحال مع كل مدينة عظيمة في التاريخ ، تعيش الحاضر ، تستشرق المستقبل بسلام و آمان و هوية متميزة ٠دون إغفال الإنسان فهو المخطط وهو المصمم و هو المتلقي و هو الذي يقود حملة الأعمار في كل مكان و زمان ، و يكفي بغداد الحبيبة ما فقدت من تاريخ و تراث و يكفينا بكاء علي الأطلال آما أن لنا إنعاش ما يحضر من الموروث ليعود الحياة ويخلد فيها .

المصادر

١. **إبراهيم ؛ محمد عبد العال : المحافظة على التراث مطلب قومي و حضاري ؛ المجلة المعمارية ؛ جامعة بيروت ؛ العدد الرابع ؛ ١٩٨٨ .**

٢. **أحمد ، نبيل حسن حسن : تجانس التخطيط العمراني مع المحيط التاريخي المدينة العربية ؛ المجلة المعمارية ؛ العلمية ؛ كلية الهندسة المعمارية ؛ جامعة بيروت العربية ؛ العدد الرابع ؛ ١٩٨٨ .**

٣. أركون ؛ محمد ؛ تعقيب في كتاب : الحداثة و التراث ؛ صنعاء ؛ مايو ١٩٨٣ ؛ (المحرر) أحمد أيفين .

٤. الاشعب ، خالص ، الحفاظ على التراث المعماري و الحضري في المدينة العربية : في ندوة التراث المعماري و علاقته بالعمارة العربية المعاصرة ؛ بغداد ؛ ايلول ؛ ١٩٨٤ .

٥. باشا، أحمد ، عمارات وسط البلد ، لوحات أوروبية في قلب القاهرة ، روز اليوسف ، العدد ٣٩٢٠ ، السنة الثامنة و السبعون ، ٢٦/ ٧ / ١-٨ ـ ٢٠٠٣ .

٦. بيلو يوسف ، فلاديمير ؛ ترميم و أعادة المدن الروسية المدمرة بعد الحرب العالمية الثانية ؛ نقابة المهندسين ـ بيروت ؛ ١٩٩٧ .

٧. تابت ، جاد ؛ إعادة الأعمار و التراث ؛ نقابة المهندسين ـ بيروت ؛ ١٩٩٧ .

٨. ترونغ ، هاي نغو ؛ إعادة أعمار فيتنام بعد الحرب (١٩٧٥ ـ ١٩٩٧) ؛ نقابة المهندسين ـ بيروت ، ١٩٩٧

٩. الثويني ، د علي : عمران بغداد في القرن العشرين بين شارع الرشيد و كارثة حيفا : الشرق الأوسط ١٧ / ٨ / ٢٠٠٣ .

١٠. ـ ـ ـ ؛ الثوابت و المتحولات : ندوة إعادة أعمار المدن بعد الحروب ؛ نقابة المهندسين ـ بيروت ؛ ١٩٩٧ .

١١. جبرا ؛ إبراهيم جبرا ؛ فتحي ؛ إحسان ، بغداد بين الأمس و اليوم : أمانة بغداد الدار العربية للطباعة بغداد ١٩٩٧ .+

١٢. جيور ؛ عطا ؛ ندوة إعادة أعمار المدن بعد الحروب ؛ نقابة المهندسين ـ بيروت ؛ ١٩٩٧ .

١٣. جواد ؛ مصطفي ؛ سوسة احمد ؛ تخطيط بغداد في مختلف عصورها ؛ نقابة المهندسين العراقية ؛ بغداد ١٩٧٠ .

١٤. ـــ ؛ الحداثة و التراث ؛ ندوة إعادة أعمار المدن ؛ نقابة المهندسين ـ بيروت ؛ ١٩٩٧ .
١٥. حريز ، سيد حامد ؛ الملتقى الخليجي الأول للتراث و التاريخ الشفهي ؛ العين مركز زايد للتراث و التاريخ ؛١٩٩٩ .
١٦. الدقاق ، إبراهيم ؛ تغريب القدس : التحول الحضري الجاري في المدينة و مهمة المحافظة علي الهوية القومية الفلسطينية ؛ نقابة المهندسين ـ بيروت ؛١٩٩٧ .
١٧. السليمي ؛ منصف : مشروع أ حياء التراث و الثقافة الأندلسية ؛ الشرق الأوسط :العدد ٩٠٣٥ ؛ ٢٤ / ٨ /٢٠٠٣ .
١٨. الصفدي ، هشام ؛ مشاكل من التراث ؛ المؤتمر السنوي الثالث للجمعية السورية لتاريخ العلوم عند العرب ؛ جامعة حلب ؛ ١٩٧٨ .
١٩. عاصم ، سلام : ندوة إعادة أعمار المدن بعد الحروب ؛ نقابة المهندسين : بيروت : ١٩٩٧ .
٢٠. فاغو بيار ؛ المعمار أمام مهامه الجديدة ؛ نقابة المهندسين ـ بيروت ، ١٩٩٧
٢١. كورت ، تجما ؛ التراث الثقافي في مدينة مقسومة : موستار : نقابة المهندسين ـ بيروت ١٩٩٧ .
٢٢. المالكي ، قبيلة فارس : و إعادة تأهيل التراث المعماري و العمراني ، مجلة المخطط و التنمية ، مركز التخطيط الحضري و الإقليمى ، جامعة بغداد ؛ ٢٠٠٢ ؛ العدد١٢ ،
٢٣. المالكي ، قبيلة فارس ؛ البياتي ؛ نمير قاسم ؛ الحفاظ و إعادة تأهيل المباني التراثية ، مجلة اتحاد الجامعات العربية ؛ عدد (١) مجلد ٧ ، ٢٠٠٠ .
٢٤. نحاس ،سامي : الوسيلة القانونية لاعادة أعمار وسط بيروت : نقابة المهندسين بيروت ١٩٩٧ .
٢٥. واكد ، خليل إبراهيم ؛ أسباب انهيارات المباني ؛ طرق الترميم و الصيانة : دار الكتب العلمية للنشر و التوزيع ؛ ط٢ : ١٩٩٦ .
٢٦. ويبوريك ، بوغدان ؛ إعادة أعمار وارسو بعد الحرب العالمية الثانية : نقابة المهندسين ، بيروت ١٩٩٧ .
٢٧. الياس ،ايثار جوزيف : أسس التجديد العنصري للنسيج التراثي : رسالة ماجستير غير منشورة قسم الهندسة المعمارية : كلية الهندسة المعمارية :الجامعة التكنولوجية : بغداد ١٩٨٩ .

٢٨. يوسف، شريف ؛ تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور ؛ دار الرشيد للنشر ، بغداد ؛ ١٩٨٢ .

29. feilden , bernard , the principles and methodology of conservation , in , the scientific conservation of cultural property , no 1 , 1978 iraq ,

30. lewcock , Ronald , three problems in conservation ; egypt , Oman and Yemen in conservation as cultural survival ; the age kham award for architecture; 1978 .

شكل (١)
بيوت بغداد التقليدية في
الاعظمية
(بين الإهمال والهجر)

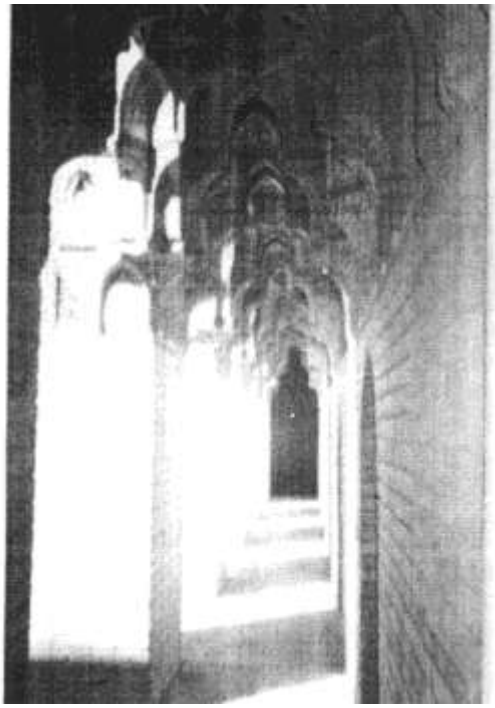

شكل (٢)
القصر العباسي في بغداد
(يرمم باستمرار ولم يعاد
تأهيله إلى الآن)

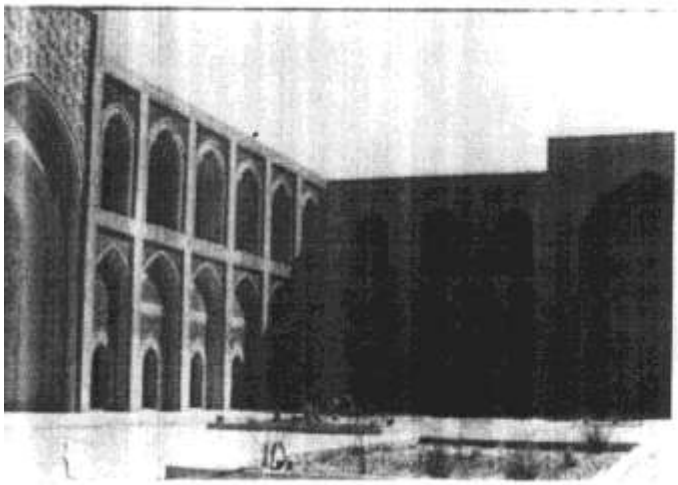

شكل (٣) المدرسة المستنصرية في بغداد (نأمل اعادة تأهيلها وإعادتها إلى الحياة)

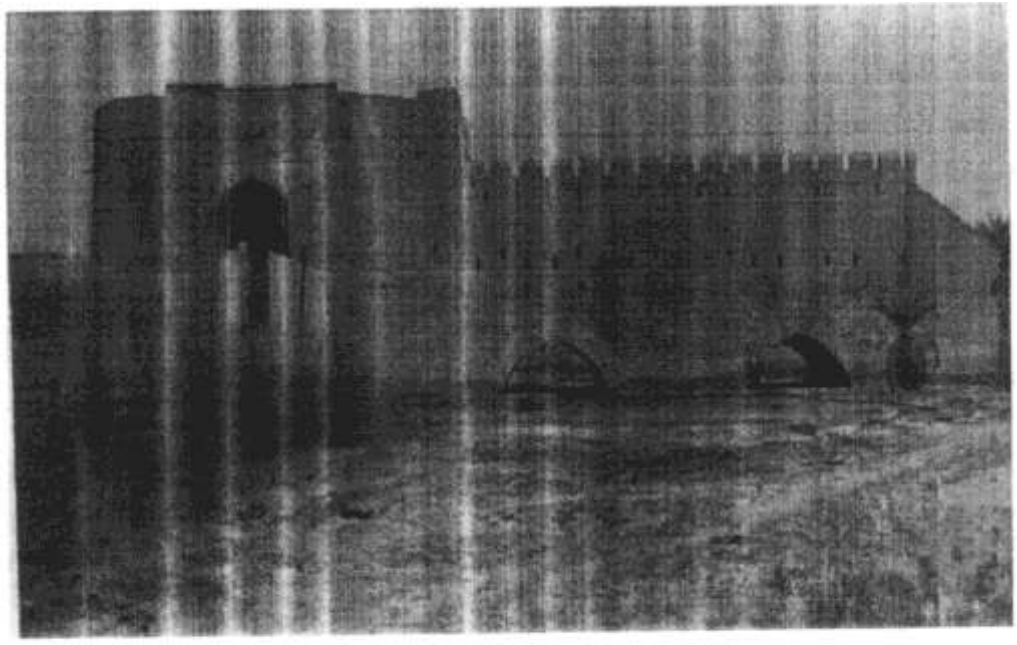

شكل (٤) الباب الوسطاني ببغداد (الباب الوحيد المتبقي من سور الرصافة)

شكل (٥) الباب الوسطاني ضمن
نسيجه الحضري في بغداد الذي
يقسمه طريق محمد القاسم السريع

شكل (٦) بغداد في الستينات
(ويظهر شارع الخلفاء وجامع
الخلفاء وكنيسة اللاتين)

شكل (٧) بيتان من بيوت شارع
حيفا التراثية (معاد تأهيلها)

شكل (٨) جامع الامام الاعظم في بغداد
(قصفت منارته خلال الحرب ٢٠٠٣)

شكل (٩) مدخل خان مرجان (قصف
بالصاروخ خلال الحرب العراقية – الإيرانية
ولم يصب بأذى)

شكل (١٠) احد ابنية وزارة الدفاع متضررة بسبب القصف خلال حرب ٢٠٠٣

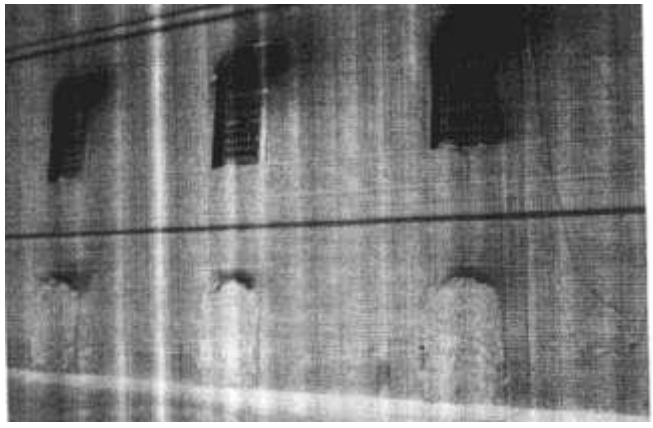

شكل (١١) قصر ام حبيبة بنت هارون الرشيد (بيت الحكمة حاليا) وقد تضرر بالحرق والنهب خلال حرب٢٠٠٣

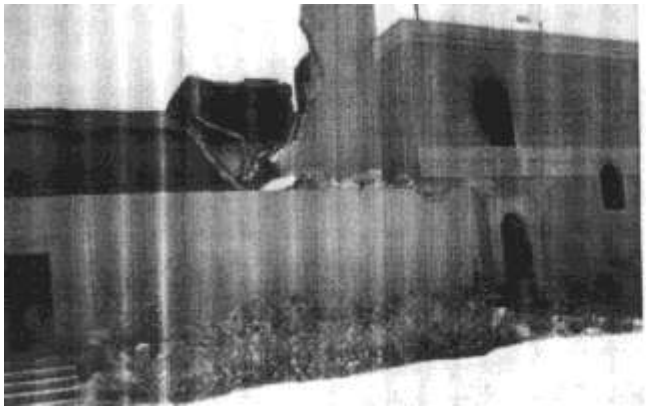

شكل (١٢) قصر ام حبيبة بنت هارون الرشيد (بيت الحكمة حاليا) وقد تضررت واجهته النهرية خلال حرب٢٠٠٣

شكل (١٣) قصر ام حبيبة بنت هارون الرشيد (بيت الحكمة حاليا) وقد تدمرت القاعة الرئيسية بالكامل خلال حرب٢٠٠٣

شكل (١٤) ضفة نهر دجلة ويتضح فيها واجهة ابنية وزارة الدفاع وقربها القصر العباسي وقصر ام حبيبة (بيت الحكمة)

شكل (١٥)المكتبة الوطنية في بغداد وحرق فيها تراثنا الثقافي وكتبها ومخطوطاتها خلال حرب ٢٠٠٣